

## نازك الملائكة

## الأديب

## والمجتمع

لا بد لنا اذا أردنا ان نجد صلة الأديب بالمجتمع العربي من أن نوضح ان بين ايدينا عنصرين اثنين هما المجتمع والأديب . اما المجتمع فهو هيئة معنوية لا تلمس باليد ولا تدرك بالنظر وإنما يشخصها الفكر المتخيل ، وهذه الهيئة من الضخامة والقوة على ما نعلم ، ولكنها ،على روعتها وسعتها ، تبقى قابلة لان تلون وتدار ويؤثر فيها، واما الأديب ، فهو مثل زملائه المصلح ورجل الدين والعالم ، قادر على التوجيه والإشراف . لانه الباني والحرك للمجتمع ، بينما المجتمع هو الميني الحرك ، والصانع في نظر الفكر المدرك اهم من المصنوع كما ان العلة اخطر من المعلول . وعلى ذلك آثرت ان ابدأ بتعيين ابعاد الأديب ومستواه وآفاه ، الروحية والفكرية ، منتقلة بعد ذلك الى تحليل الملامح المجتمع العربي وتعيين نقائصه .

ان الحديث عن مكان الأديب في المجتمع ينبغي ان يركز الى معنى قولنا « أديب » . وليس يخفى ان هذا اللفظ قد اتسع واصبح مثقلا ببعان جانبية غير قليلة . وسوف نعين هذه المعاني بالقاء نظرة على المدلول الشائع اليوم لكلمة « أديب » .

ان المفهوم الدارج لكلمة الأديب يهتم بالشكل اكثر مما يهتم بالمضمون . فما تكاد نذكر الأديب حتى يتبادر الى الذهن العام انه ذلك الذي ينظم القصائد او يكتب القصص او يؤلف المسرحيات . فكل من صنع هذا سمي اديبا . ولا يكاد يتبادر الى الذهن مطلقا ان للأديب مكان البناء في المجتمع فهو يشيد ويقم الاسس ويحدد الاطر . وما القصيدة والقصة والمسرحية الا انماط شكلية يصوغ الأديب فيها افكاره . وكانت النتيجة ان كثيرا من ادبنا اصبح بلا مضمون اجتماعي مستفاد . وحسب كثير من الادباء ان انماطهم بهيكلها المترفة المعقدة تفنيها عن المدلول الاجتماعي الذي يحرك القيم والمعاني .

ومن تفرعات هذا المأخذ ان كلمة الأديب قد افرغت افراغا من معناها الخلقى والروحي وقصرت على معنى بلاغي فأصبح الأديب يعني من يكتب بأسلوب جميل فيه بلاغة التعبير وجمال الصورة والرمز . وبذلك اصبح ارتكاز الكلمة تعبيريا لا روحيا . وقد استشهد احد ادبائنا متحمسا بعبارة للفيلسوف الايطالي بندتو كروتشه نصها : « الدعوة الى الفضيلة ليست مهمة الفن ، بل مهمة الأديان وعلم الاخلاق » . والواقع ان كروتشه يخلط هنا بين الدعوة الوعظية الى الاخلاق بالاساليب المباشرة وهي مهمة الأديان ، وبين الاخلاقية المصيئة التي يشف الادب عنها دونما وعظ ، وهي قمة الجمال في الادب والفن . ولو تأمل المتأمل لما وجد تعارضا بين علم الجمال وعلم الاخلاق بل هما كل واحد لا تجزئة له .

والواقع المؤسف ان لفظ الأديب عندنا قد خضع لانحراف النظرية المجردة التي تندرج تحت عنوان « الفن للفن » فالأديب يعتبر اليوم صانع الجمال ومرفق الرحيق في الالفاظ المسحورة لا يسأل عن الهدف الانساني ولا عن المثل الاخلاقي . قال نزار قباني قبل حزيران ١٩٦٧ « الشعر زينة وتحفة باذخة كائنية الورد » ومعنى هذا الا نرجو نفعا اجتماعيا من الشعر . والواقع ان الورد في الطبيعة ليس خاويا من النفع . وانما يتفتح الزهر لينتج البرتقالة الحلوة المفيدة والوردة التي لا تأتي بشرة مملوسة تنفع غذاء للنحل والطيور والفراشات . وما من شيء في الطبيعة الا كان له قبل جماله نفع ثابت . وحاشا للانسانية ان ترضى لأديبها الموهوب ان يهدر طاقته الفكرية في كتابة صفحات جمالها عقيم . وهل يرضى ضمائرنا ان نكتسب من الادب ما هو حليصة فارغة وترف بينما اهلنا العسرب يبادون في الارض

المحلثة ؟

فاذا رفعنا لفظ الاديب فوق هذه المآخذ استطعنا ان نخلص الى الاديب الحق . وقد سبق ان اشرنا الى انه انما ينتهي الى طائفة من الناس نستطيع ان نسميهم بالخواص وهذه الطائفة تشمل مع الاديب ، الحكيم والمصلح والعالم ورجل الدين . وهي تتميز على عامة الناس بخمس صفات اساسية نخصيها في ما يلي :

( الاولى ) ان هؤلاء قوم يعلمون أي يتقنون العلم بما كرسوا قلوبهم وحيانهم للدراسة ، وبما هذبوا عقولهم ووسعوا آفاقهم . فانما الادب تخصص وتفرغ لطلب العلم وليس باديب من فرأ خلاصات ومختصرات من الجرائد والمجلات هي حصيلة علمه .

والصفة ( الثانية ) ان هؤلاء قوم يعملون بما يعلمون . فلا نفع في عالم يعلم الناس المبادئ والقيم ثم لا يعمل بها هو نفسه ولا يكون مثالا مجسدا لها . قال تعالى في كتابه الكريم «انما يروى الناس بالبر وتسنون انفسكم ، وانتم تتلون الكتاب افلا تعقلون ؟» .

والصفة ( الثالثة ) انهم يملكون الاستقلال الفكري الكامل عن التيارات التي تجرف المجتمع فلا ينفادون لها كما ينفاد العوام وانما يستشرفونها من أعلى ويحكمون عليها ، وبذلك يوجهون المجتمع . فاما العامة فان ما هو شائع عندهم لا جدال فيه ولا يجروون على مخالفته . واما الخواص فيسألون انفسهم عن أسباب الظواهر الاجتماعية ويرفضون منها ما خالف العقل والمصلحة الانسانية .

والصفة ( الرابعة ) انهم يزدرون الشهرة والمناصب كل الازدراء وانما يعيشون للعلم والعمل ، يقولون ما يعتقدون بسبه وان جاءهم بالاستنكار ويستطيعون ان يجابهوا الجمهور بما يكره ، كما يعطى الطبيب البارع جرعة دواء مرة ليرى مشف . وعلى هذا الاساس يكون الاديب كالجندي في المعركة لا يبالى ان يقتل في سبيل الحق . اما الاديب الذي يداهن الجمهور مدهانة رخيصة ليكسب الشاهة والشهرة من اقرب السبل فهو خائن لرسالته . وانما يعمل الاديب بالحديث النبوي : « من رأى منكم منكرا فليغيره بيده ، فان لم يستطع فليسلنه فان لم يستطع فليقلبه وذلك اضعف الايمان » .

والصفة ( الخامسة ) ان طائفة الخواص هذه يملك أفرادها ذهنا مشعا له ومضات وسبحات ورؤى تراهم يتميزون بنوع من البصيرة المضيئة التي تنير لهم المستقبل فيرونه . انهم يملكون حدسا ، روحيا ولهم لواص عقلية يدرسون بها ما سيفع قبل وقوعه وقد يحذرون قومهم مما سيأتي ويرفضون أصواتهم بالنهي والتنبيه . ومعنى ذلك ان الاديب ، كرجل الدين ، ورجل العلم والمصلح ، انما هو مرحلة نحو النبي . وليس في حكمنا هذا انتقاص للنبوة وانما النبي ملهم ينطقه ربه وليس بشرا عاديا ، ولكن النبوة لها صفات كثيرة وقد يملك الانسان المتميز بعض هذه الصفات : صفة او صفتين . اما مجموع الصفات فلا يملكها الا نبي .

والادب بالمعنى الحق احساس عميق بما هو كائن وبما سيكون ، يأتي من تهذيب النفس ودرح شهبانها الدنيا وبآتي من الدراسة والعمل ، والاطلاع على احوال الامم واحداث التاريخ وملاحظة المجتمع . ولسنا ننسى ان الاديب ، بدء ، يملك موهبة اللفظة وتوقد العاطفة وشعلة الذهن الفكري . فكل هذه المزايا والمكتسبات ترفع الاديب الى مرتبة الموهوب الذي يوجه ويقود ويؤثر في سير التاريخ .

هذه الصفات الخمس شروط وجودها لدى كل اديب يطمح الى ان يكون له دور في بناء المجتمع . وقد يكون من نافلة القول ان نشير الى ان اغلب ادبائنا المعاصرين لا يحققون هذه الملامح ، ولذلك لا نرى لهم تأثيرا فعليا في توجيه المجتمع العربي . وما زال الادب عندنا مسربلا باسماله الجمالية والبلاغية المحضة . فقد بقي اغلب ادبائنا منقادين للتيارات الشائنة في المجتمع يمثلونها ولا يرتفعون فوقها . وانما الصفة العليا للاديب ان ينفصل بذهنه عن كل ما هو شائع في المجتمع من ظواهر ، فاذا استقل عنها استطاع تشخيصها

وتبين اسبابها ، وجاء بامثلة لها من الحياة وناقشها مناقشة علمية لا تعصب فيها ولا غضب ، وانما موقف الاديب في هذه الحالة هواء مدرك وهيمية وعوق . كما ينتقد الانسان الغاشع نفسه ويلتمس عيوبه ليصلحها ويرتفع فوقها .

ان الاديب بهذا المعنى هو الذي يصوغ القيم والافكار والمبادئ التي تبني المجتمع ناركا لرجل الدولة مهمة التطبيق . وليس يخفى مسا لهذا الدور من قيمة في بناء المجتمعات . فانما الكيان الاجتماعي فكر في حالة تنفيذ . ولا يكفسي الاديب ببناء المجتمع وانما يبقى جرس الخطر الذي يذمر بما في الاسس من تخلخل وتصدع . وما يقوله مثل هذا الاديب يتحول الى عمل . لان الحقيقة تشع والحكمة تتلأ وتنفذ الى العمول والقلوب مهما بنيت في وجهها السدود . وكلمة الحق لا بد ان تجلجل عاجلا او آجلا .

\*\*\*

اما المجتمع العربي فان علينا ان نبيِّن ملامحه كما تبيننا ملامح الاديب . واول ما يميز هذا المجتمع اليوم انه مجتمع في معركة ، او لنقل انه مجتمع معركة لان هذه المعركة رؤر في اتجاهاته ودوافعه وحياته جميعا ، فهو متلبس بها مدفوع اليها وافع فيها . ولا خلاص له منها الا بان يواجهها مواجهة كاملة وبفرغ منها . وانما يجد الاديب بين يديه مجهما في حالة خطر وذلك بغير رسالة الفكر ويلونهما ويجعلها رسالة خاصة في ظروف خاصة .

واحسب ان في موقفنا الفكري خطاين اثنين :

( الخطأ الاول ) اننا في استعدادنا للمعركة ننسى ان علينا خلال ذلك ان نبني المجتمع في الوقت نفسه . فان خوض المعركة وبناء المجتمع عهديين مترابطين لا يصح ان نقدم ايا منها على الاخرى . فاذا انشغلنا بالمعركة وأرجأنا قضايا المجتمع حتى نتصر كتبنا على انفسنا الهزيمة لا سمح الله . لاننا بذلك نصنع صنع انسان له مريض يهتم باعطائه الدواء ويؤجل مسألة تغذيته الى ما بعد شفائه ، فان المريض يموت ولا ينفع فيه الدواء .

والخطأ ( الثاني ) في موقفنا اننا نكل التخطيط للمعركة للجيش وحده تاركين هيئة المجتمع معزولة مشلوله ، فالاديب يتصاح وحده فلا ينتفع برأيه احد . ورجل العلم ينه ويشرح وحده فلا يصفى اليه احد . ورجل الدين والاخلاق يحتج ويوجه دونما سميع ولا مجيب . والمهندس والمحامي والطبيب لا يستشارون في شيء . وذلك خطأ جسيم ندركه عدونا في فلسطين حيث تتعاون اجهزة الدولة كلها في مواجهة المعركة ، ولذلك غلبونا في حزيران . ان لهم ذهنيا علميا فلا ينبغي ان نواجههم بذهن عامي .

وبعد ، فيبدو لي ان في المجتمع العربي اليوم مجموعة ظواهر فكرية خطيرة ينبغي للاديب ان ينه اليها في سبيل بناء هذا المجتمع ، وساستعرض هذه الظواهر فيما يلي :

( الظاهرة الاولى ) ومضمونها ان المثل والافكار الاجتماعية لا ترد المجتمع على شكل قيم يراود فحوصها وتبينها وانما تداهم مداممة التيار العنيف الجارف . فتنزل بنا الفكرة الجديدة كما يتحدر السيل الدافق من قمة الجبل الى الوديان المجاورة مندفعا يجرف امامه كل شيء لا يبقى ولا يذر . والتيار ، كل تيار ذو طبيعة هوجاء لا تعرف الاستقامة ولا الرونة ، فاذا غمرتنا الافكار باندفاعها كمن فيها معنى الطفيان ، فهي تشل الفكر وتخدر النفس . واذا طفت الافكار على المجتمع وسلبيته فدرة التفكير فقد شخصيته وحيويته فاذا أردنا تبسيط هذا المعنى قلنا ان الناس اصبحوا يوجهون الافكار الادبية والاجتماعية مواجهة الأشل او النوم . تراه يصدق كل ما يسرى ويتقبل كل ما يسمع ، ويسلك سلوكه من لا ارادة له . والمواطن العربي في المغرب او الحجاز او دمشق او القاهرة لم يعد متقادا لطبيعته الانسانية ، لان الفطرة السليمة تفرض على الانسان ان يتساءل عن اسباب الاشياء التي يقدم عليها ، بينما العربي اليوم

يسلك الدرب دون أن يسأل عن الداعي الى سلوكه فهو قد فقد طبيعة التفكير واصبح مسيراً . وخالصة هذه الظاهرة ان الفرد العربي لم يعد يسأل نفسه «لماذا؟» وإنما يرى الظاهرة شائعة في المجتمع فينقاد لها دون اي اعتراض او مناقشة . واذا فقد الانسان الرغبة في ادراك الاسباب فتلك هي الطامة الكبرى في نظر كسل متأمل .

وخير مثال نصرته لهذه الظاهرة في الحقل الادبي ان نزعته القموض المسرف قد شاعت شيوعاً عظيماً في الشعر الحديث . ولو كانت ظروفنا النفسية والاجتماعية في الوطن العربي نبرر ان يلجأ الشاعر اليوم الى القموض لقلت ان التقيد القائل في اكثر هذا الشعر مبرر اجتماعياً بارتباطه بظروفنا الخاصة ، ولكن الامر ليس كذلك . ومتى ينشأ القموض ؟ انما جنح شعراؤنا في العقود الأولى من القرن العشرين الى شيء من الإبهام في التعبير لانهم كانوا يعانون ارباب حكومات استعمارية طاغية لا يبيح الهمة الوطنية فاخترت شعراؤنا بعواطفهم وطمسوها وبرفوها ليستطيعوا ان يتأوهوا بها . فكان ذلك تبريراً للقموض . ثم جاءت الحكومات الثورية الاشتراكية في غير قليل من البلاد العربية وطلع فجر الحرية فزال سبب القموض ولم يبق له داع . ذلك فضلاً عن ان هزيمتنا المريرة في حزيران قد وضعت الشاعر العربي في مواجهة الجمهور . يريد الشاعر ان يسير بالركب العطشان من الصحراء الفاحلة الى حيث المياه والشجر والظلال . وصرخة الجهاد من طبعها ان تكون واضحة الثبرة مستقيمة المعنى . لان المجاهد يرى الطريق ويدرك ابعاده كلها ، ولا يمكن لمن يتخطب ان يصل الى ابواب القدس المحتلة . ان مدى الرؤية ينبغي ان يكون صافياً رائفاً أمام أعيننا والا تهنا في الضباب . ونحن اليوم نحتاج الى الكلمة الواضحة ، لا نتعارض صراحتها واستقامتها مع ظلال الشعر وألوانه وموسيقاه والرموز فيه ، ولكنها تتعارض مع التيه والظلمة والصلبان التي نصلب عليها الظلال . ولست أريد بهذا الاساءة الى اخواننا الشعراء وانما احب ان تصل قوافيهم وكلماتهم الى هذا الركب العربي الذي يزحف ودماؤه تفتقر دون ان تذهب أبيانهم بتدوا الرياح ولا يعيها قلب .

اما الظاهرة (الثانية) فهي من أخطر الظواهر التي جرفت المجتمع العربي ونعني بها الانقياد المطلق لما ياتي من الغرب ، كل ما ياتي منه من بضائع ووسائل حياة وقيم ومثل ومعتقدات ، فقد اصبح الفرد العربي منهار الفكر والروح بازاء هذا التيار ، يعتقد في صميم نفسه اننا اذا اردنا لانفسنا الحياة والتقدم فيجب ان نشبه حضارة الغرب باكملها دون اية مناقشة . وقد استنامت عقول الناس لفكرة طاغية مضمونها ان الغربيين افضل منا في كل شيء . ان عقولهم تبسود للناس اكمل من عقولنا ، وحضارتهم اعظم من حضارتنا وهم المقلدون في كل امر . ولقد اصبح معنى المجتمع المصري عند عامة الناس كياناً يبني على غرار المجتمعات الغربية لا نميل به مقدار شعرة . وبلغ من طغيان هذه الفكرة عند الفرد العادي اننا قلنا له ان هذه الفكرة لا تلائم حياتنا رد علينا فوراً باننا رجعيون او سلفيون ، فاذا لم يقل ذلك لنا حرفياً قال في نفسه : «مالي ولهم ؟ انهم متأخرون لم تفتح عقولهم على الحياة الحديثة» وهذه أخطر ظاهرة تدهم مجتمعنا ما ، ولسوف تنتهي بنا الى انهيار شامل لسببين :

(الاول) لاننا ، ما دامت هذه فلسفتنا ، سنصير الى ازدياد كل ما هو عربي على اعتبار ان كل ما عند الغربي افضل من كل ما عندنا . وبهذا سنفقد شخصيتنا الحضارية ونستوف عن اعطاء اي شيء الى الوجود . وتلك خسارة جسيمة . فان هذه البقعة من العالم قد اعطت الدنيا حضارة وفكراً وأخلاقاً على مدى عصور طويلة ، فاذا فقدنا اليوم ثقتنا بانفسنا ذبلت شجرتنا السخية وانقطع عنها ماء الحياة وعدنا ذبلاً للامم الأخرى .

(الثاني) لان الغرب الذي نقله اليوم يسير الى التمسح والانهيار وموت الإنسانية . وليس هذا الرأي لي انا وحدي وانما

قال به قبلي مفكرون كبار في الغرب نفسه مثل أوزولد شينغلر وأرنولد توينبي وألبرت شفايتزر . فكل هؤلاء يأخذون على حضارة الغرب ما يجعلها تقف على شفا جرف . وقد تنبأوا باحتمال زوال المدنية الغربية اذا ما مضى الغرب في اتجاه المادبة والفجور والحرية الفردية المطلقة ، فاذا فلدينا هذا الغرب في كل شيء دون ان نلاحظ ظروفه وظروفنا كان مصيرنا الى انهيار مماثل وانما نستطيع لو شئنا ان نعطي الغرب القيم والمثل التي يزر بها تراثنا العربي وبها يبني المجتمع الاكمل ونصج الحضارة ويرفع الانسان .

وقبل ان نختم الحديث عن تقليدنا للغرب نأني بمثال مسن حياتنا الواقعية . فقد دأب قومنا في السنوات الاخيرة على اقتباس طريقة الفرنسيين في تفخيم المخاطب المفرد باستعمال ضمير الجمع في خطابه . وهذا ، لو فكرنا فيه متجردين ، غير منطقي . فكيف نقول للواحد (انتم) وللجماعة (انتم) ايضا ؟ ان هذا حين نتامله مناقض لما يقبله العقل . بل نقول للواحد (انت) ونقول للجماعة انتم كما يفرض منطق الاشياء . وتلك هي الطريقة العربية طريقة الفطرة السليمة التي نحرص على التمييز بين المفرد والجمع . ولقد ألفنا عبر تاريخنا ان نخاطب الواحد بضمير المفرد مهما بلغت عظمته حتى اننا لخاطب الله تعالى فنقول له «لا اله الا انت سبحانك» نخاطبه بالمفرد ولا نعظمه الا بالمفرد . وكان الناس يخاطبون الرسول (ص) بالمفرد ايضا . وكان العربي يدخل على الخليفة ويقول له «انت» فلماذا اقتبسنا طريقة الغربيين في هذا العصر فرحنا نخاطب الواحد بضمير الجمع ؟ ولو كانت طريقتهم منطقية او كان استعمالهم اصح لغوياً لكان الوجه في تقليدنا لهم ظاهراً . ولكننا اخرى ان نعطيهم طريقتنا وننههم عن هذه الفوضى النحوية . وهل صرنا من الهوان بحيث نترك الاصلح والاصوب لمجرد انه اسلوب آبائنا وأجدادنا ؟ وكيف يصح لنا ان نربك قواعد لغتنا ونهجر اسلوبنا فنقطع الصلة بين تقليدنا في هذا العصر وبالعديد عصورنا السابقة ؟ وبعد فلماذا لماذا يفخم بعض الناس بعضاً آليست البساطة العربية أجمل وأحفظ لكرامة الانسان ؟ ان هذه البدعة مذلة لكرامة الفرد العربي ، نذله لانها تبعده عن ترائه وتاريخه ، وتذل ذهنه لانها نستحدث بدعة فسي قواعد لغته ، وتذله اخيراً لانه بها يأخذ عن الاجانب ما هو سقيم لا منطق وراءه بينما يترك من مآثوره ومآلوفه ما هو طيب سليم .



والظاهرة (الثالثة) ان التجزئية غلبت على الفكر العربي غلبة واضحة فأصبح الناس يحسبون ان اللغة ظاهرة منفصلة عن الاخلاق ، وأن قضية فلسطين امر لا يتصل ببناء المجتمع ، وأن العلم غير الدين والحرية غير الفكر ، وسبب ذلك ان الفكرة الغالبة على ذهن العربي العام فكرة تجزئ الظواهر والقيم ولا ترى الروابط الخفية بينها . ولذلك نجد الفكر العربي يلقي عبء هزيمتنا المشهورة في حزيران على الحكومات العربية وحدها ، معتقداً انه معفى من المسؤولية اعفساء تاماً . وفي مقابل الفرد تعقد الحكومات ان حل قضية فلسطين انما هو قضية عسكرية محضه . وانما الحقيقة ان مبركنا مع العدو الصهيوني يسأل عنها الفرد كما يسأل المجتمع ، ويسأل العسكري كما يسأل رجل الدين ، ويحاسب رجل القانون كما يحاسب رجل السياسة . والعالم مسؤول والفكر ، وكلنا مسؤول . ولقد أضرت بنا هذه الانفصالية الفكرية في حرب حزيران ضرراً بليفاً . ومع ذلك مضينا نسير في عين الطرق المتفردة المعزولة التي لا تلاقى .

وتعكس هذه التجزئية الواقعية في الأساس الفكري السذي يقوم عليه بناؤنا الاجتماعي . فان اغلب الناس يجهلون تماماً ان اللغة التي يتكلمها مجتمع ما ، ناثراً ناثراً عظيماً بالنظم الخلقية التي يدب بها ذلك المجتمع . ولقد طالما لفتت نظري تلك الظاهرة الجميلة التي ميزت الحياة العقلية في الجاهلية وصدور الاسلام : ظاهرة الابدحاز المطلق . فقد كانوا يصوغون قوانينهم الخلقية في ما سموه بالحكمة . والحكمة مهما عظم معناها كانت تقال في اربع كلمات او خمس لا تزيد .

فلها وما ويصطلحان فهذا كذب مباح لانه ادى الى اجتماع المتباغضين . ومثل هذا كثير معروف . ولكن المجتمع العربي لم يعد يفهم هذه النسبية في القيم التي يؤمن بها . فالواطن يتيه زهوا اذا وصفناه باحدى القيم المستحبة ويرتجف هلعاً اذا ما نعت بقيمة معاكسه مما نذره المجتمع . والواقع انه لا القيمة المستحبة مطلوبة في الحالات كلها ، ولا القيمة المستعده مرفوضة في الحالات كلها . ان الاطلاق صفة معارضة لكل قيمة من قيم المجتمع . والقانون اساسه النسبية وملاحظة الظروف والحالات .

ولنضرب من حياتنا الواقعية امثلة على هذه القيم . وأولها كلمة «حرية» فقد هام المواطن العربي اليوم هياماً شديداً بلطفة «الحرية» . وأرجو ان يكون واضحاً انني قلت «هام بلطفة الحرية» ولم أفل هام بالحرية نفسها . لان حب الحرية يقتضي وعي معانيها في الحالات كلها . اما حب لفظتها فقد يؤدي بنا الى أن ندوس الحرية ونحن نبحت عنها . والنقطة الجوهرية ان يصل المواطن الى التمييز الواعي للحد الفاصل بين حرته الذاتية وحرية الآخرين في المجتمع . لان حرية الفرد مطلوبة الى الحد الذي لا يعارض سعادة المجتمع العام . فاذا ناقضت حررتي حرية فرد آخر اصبحت طفيلاً وأغلاماً ، وعلى المجتمع في هذه الحالة ان يحارب هذه الحرية الزعومة .

ولنأت بمثل لاسلوب فهم الناس للحرية في بغداد . يقيم انسان من الناس حفلة زواج او مجلس حزن فيعتقد ان من المباح له ان يأتي بمكبره صوت تذيع حفلته في الشوارع الجاورة كلها . فاذا احتج الجيران عليه صاح بهم «انا حر في بيتي اصنع ما اشاء» . ان هذا الاسلوب السقيم في فهم الحرية بغي وأذى على الجيران كلهم . لان مكبرة الصوت تسرق السكينسة من خمسين بيتاً بلا استئذان . والناس يستأجرون بيوتهم ومن حقهم ان يجدها ساكنة هادئة عندما يريدون ، فيقرأون او ينامون أو يمرضون . تلك حريرتهم . وانما العدل ان يقيد المجتمع حرية هذا الرجل الباغى المعتدي ويضع عليها الاغلال ضمناً لحرية الآخرين وهي حالة يصبح فيها التقييد افضل من الحرية . بل هو تقييد مقدس يامر به الله وتقره العدالة .

واللفظة الثانية التي اصبحت لها قداسة عظيمة في قلب المواطن العربي اليوم ، لفظة «التجديد» . فقد اطلقوا هذه اللفظة من كل قيد وشرط ، وأغرموا بها اغراماً شديداً . حتى اصبح كل جديد افضل من كل قديم دون تمحيص او تبين . وهذه فلسفة وبيلة ستفقد مجتمعنا الى هاوية لسببين جوهريين احدهما سبب خاص والآخر عام . أما السبب الخاص فهو يتعلق بظروف الامة العربية لان مجتمعنا يتحدر من ماضٍ اظلمته حضارة عظيمة ذات قيم باهرة لا يصح ان نتخلى عنه باسم التجديد . وأما السبب العام فهو يتعلق بطبيعة التجديد نفسه . ذلك ان المرء قد يلاحظ ان نظام حياته بال سقيم لا نفع فيه فيجده باقتباس نظام جديد افضل . وهذا تجديد طيب وفيه نفع للحياة الانسانية . ولكن هذا المجدد سرعان ما يهيم بالتجديد نفسه ويكف عن ملاحظة حاجته الى التجديد . وعند ذلك يدخل في مرحلة نالية ، فيندفع الى تغيير الجديد الذي اقتبسسه . فيغيره سريعاً قبل ان يؤدي اكله ويخصب حياته . وبذلك يصبح الهيام بالتجديد قضاء على التجديد نفسه . اي انه لم يعد يرغب في النفع وانما أغرم بالتجديد .

ويبدو لي دائماً ان معنى هذا شبيه بمعنى عجب عرفته في طفولتي . فقد كان الاطفال يقولون لي : «كانت هناك حيتان فاختصمتا فراحت كل منهما تاكل ذنب الاخرى . ومضتا تاكلان حتى انتهت كل منهما من اكل الاخرى وماتتا جميعاً» . وكان هذا الحديث يدهلني فلا ادرك اوله من آخره . وكنت احاول ان اتصور حيتين مهدتين مضموغتين جميعاً فيتعب في ذلك ذهني الصغير الفج . وعندما كبرت بقي هذا المثال يعاود ذهني حتى فهمته فيما ارى من غرام المجتمع العربي بالتجديد . فان تجديد التجديد ، وتجديد التجديد الثاني

ومن هذه الكلمات القليلة تشع اعظم القيم الخلقية التي تميز بها اولئك البدو الحساسون كالروءة والعتاف والنجدة ونصرة الجار والصدق والكرم ، وغير ذلك من المثل الرفيعة . واليوم لا يحاول اي من مثقفينا ان يتفهم لماذا صاغ الجاهليون اعظم المعاني في البيت الواحد المفرد من الشعر . بينما نصوص اليوم المعنى نفسه في البيت الواحد من الشعر . انما نملك مسألة لغوية تتصل باخلاق المجتمع . ذلك انه كان مجتمع عمل لا مجتمع افوال . فكان الفرد لا يطيل فسي النص على القانون الخلفي وانما يركزه في كلمات قليلة . وكانت تلك الكلمات تشع عشرات المعاني والظلال في نفس العربي . ويقوم جوهر هذه الظاهرة على ان المجتمع الذي يعمل بالمثل يميل الى اختصار الكلمات التي يعبر بها عن تلك المثل . لان الكلمة الواحدة عنده صادقة صدفاً كاملاً فهي عنده قانون نافذ يعمل به دون تردد . اما المجتمع القوال الذي يعول ولا يفعل فهو يميل الى صياغة المثل في أسطر كثيرة وفصول مسهبة ، يؤكد نك المثل ويؤكدها لعله يؤثر في النفوس فيتبعونها . فكان صانع المعاني الاخلاق في عصرنا يتهم نفسه بعدم الصدق فيطيل ، ويتهم السامع بعدم التنفيذ فيسهب ويفصل .

ذلك عندي سبب الاجاز المطلق في الحكمة العربية . فكانوا يؤمنون بأن ما هو مقدس يملك اشعاعاً ذاتياً فلا يحتاج الى التطويل . وكان كمال البلاغة من كمال النفس . اما في المجتمع المعاصر حيث بات الفرد لا يعمل بالمثل الا نادراً فان قيمة الالفاظ قد تسدت كما تسد العملة المتضخمة ، ومن ثم فان الفرد اصبح يستعمل مئات الكلمات في التعبير عن المعنى اليسير . ان الكلمة لم تعد عملاً ولذلك لنم تعد لها هبة .

ولسوف اجيء بمثل بسيط من حياتنا يرينا كيف تؤثر اخلاق الناس في اللغة التي يستعملونها . منذ سنوات علق احد المخازن على بابها لافتة نصها : «تنزيلات» اي تخفيض في الاسعار . وقد كانت النتيجة الطبيعية ان الناس ازدحموا على ذلك المخزن يبحثون عن السلع الرخيصة . وسرعان ما سرى الهمس بين المشتريين بأن المخزن لم يخفض الاسعار فانلافتة كاذبة . وشاعت هذه الحكاية في السوق وكانت فضيحة . فلم يعد احد يقرب ذلك المخزن وسقطت كلمة «تنزيلات» حتى ان مخازن اخرى اعلنت عن تنزيلات فلم يتحرك احد لدخولها . ان الكذبة هنا قد شوهت اللغة ولطختها وافقدتها الصديق الطبيعي الكامن فيها . وحار اصحاب المخازن كيف يصنعون فما كان منهم الا ان علقوا لافتات جديدة نصها هذه المرة «تنزيلات حقيقية» . ولست اريد هنا ان اتحدث عن المذلة النفسية في هذه التسمية ، لانها في الواقع اقرار صريح بالكذب السابق . وانما المهم ان نستخلص المعنى اللغوي من هذه الواقعة .

ان الاجاز في الكلمة الاولى «تنزيلات» قد اصبح لا يعني لانه اخفى وراءه كذبة ، فاصبح لا بد من التطويل باضافة كلمة جديدة ما زال لها شرفها وبريقها هي كلمة «حقيقية» . وبذلك تضخمت اللغة . وكان التركيز والقصر ممكناً عندما كنا صادقين نعمل بما نقول ، فما كدنا نتحول الى قوالين حتى اضطررنا الى الاسهاب وانما هذا مثال مصغر . وأية مقارنة بين ادبنا المعاصر والادب الجاهلي تسند ما اذهب اليه وتدعمه .

\*\*\*

والظاهرة (الرابعة) ظاهرة فكرية يلاحظها المتأمل متفشحة في المجتمع . ومؤداها ان المواطن يعطي للمعتقدات قيمة مطلقة في ذاتها خلافاً لما ينبغي له ، لان الفضائل في نظر كل بصير نسبية اذا ما استعملناها في غير موضعها . مثال ذلك ان الكذب رذيلة مذمومة في المقياس الخلفي ولكنه يصبح في بعض الحالات ضرورة نبيلة . فاذا اردنا ان نصلح بين اخوين متباغضين استطعنا ذلك بكذبة فاضلة نستعملها معها فنقول لاحدهما ان اخاك يشني عليك ويهدحك وقد سمعته بأذني . ثم نعمل مثل ذلك مع الاخ الثاني فسرعان ما يلين

هو الحيتان اللتان اكلتا بعضهما . وكما انه لا يمكن عقلا ان تاكل حية مأكولة حية اخرى اكلتها قبل ذلك كذلك لا يستقيم معنى التجديد في حياتنا اذا استمر الى ما لا نهاية له . فالتجديد ينبغي ان يحدث مرة واحدة ، ثم تليه اعوام طويلة مرتخية بطيئة يقلب فيها المجتمع ذلك الجديد ويهضمه ويستوعبه ويستخلص ثماره ويبدع منه فيما ذاتية من صنع نفسه . كما يقرأ المرء كتابا فيما ثم يبقى فترة يدرسه ويستوعبه ويعيشه فينتفع به اكثر مما ينتفع انسان آخر يقرأ كل يوم كتابا جديدا سرعان ما ينساه . ولا يخفى على احد ان امريكا هي البلد الذي هام فيه الناس بالتجديد . ولذلك اصبح شائعا في اوربا ان المجتمع الامريكي لم يأت بقيم عالية فليست له حضارة ذاتية حقة . وانما هو مجتمع يعيش لساعته ولا ينتج فكرا ولا مثلا .

ولنأت بمثل من التجديد المضر الذي داهم المجتمع العربي في السنوات الاخيرة . لقد طغى حب التجديد حتى على المصلحة الاجتماعية فراح الناس يرفون من الغرب غرفا ، هادمين كل قيمة عربية في مقابل ذلك . الى درجة انهم ارادوا لنا ان نقد شخصيتنا العربية كاملة فلا يبقى لنا من عروبنا شيء . والواقع انهم قد غيروا حتى اسماءنا ونظامنا في التسمية وما من شيء الصق بالانسان من اسمه . لقد اصبحوا اليوم في نشرات الاخبار وفي الصحف نادون الانسان باسم ابيه بدلا من اسمه الشخصي . فالرئيس جمال عبد الناصر ، اسمه جمال وكان علينا ان نقول : قال جمال وصرح جمال ، بينما نجدهم اليوم لا يسمونه الا عبد الناصر . والسيد عبد الناصر كما نعلم ويعلمون هو والد الرئيس جمال ، ولو كان الرجلان كلاهما في مكان وقلنا «يا عبد الناصر» لاجابنا هذا الرجل . اما ولده فقد سماه جمالا وليس له اسم غير هذا . وانما اراد قوما التجديد على طريقة الغربيين الذين ينادون الانسان باسم ابيه وكان هذا التجديد غير منطقي ولا نافع . اما منطلق الاشياء فيجعل اسم الانسان الصق به من اي اسم آخر . واما النفع ففسد اضعاها لان نظامنا العربي في التسمية أدق وأصح اناني لو قلت لكم (قال عبد الله) فهمتم انني اقصد محمدا رسول الله ؟ ولو قلت جاء زياد ابيكون المقصود طارق بن زياد ؟ واذا جددنا نظام التسمية عندنا تجديدا أعمى ورضينا هذا الهوان أفلن ننبت حياتنا المعاصرة عن حياة قوما على صورة مفرقة ؟ ذلك ان التاريخ العربي سيكون كله فانما على نظام في التسمية بينما يتبين تاريخنا المعاصر في مسالك نظام جديد . ولت النظام الجديد كان افضل اذن لهان الامر ولكن ... لو ذات سوار لطمتني .

ان السبب النفسي الكامن وراء هذه الظاهرة هو ضعف الثقة بالنفس في المجتمع العربي ، فالناس يخون بعضهم بعضا بانهمهم بالرجعية ومعاداة التجديد . وانا اسمع طائفة من الادباء يتشائمون افرادها على صفحات المجلات بهذه الالفاظ فيتهم الواحد منهم الاخر بها ويدلني هذا على ظاهرة ضاربة في نفسية المثقف العربي اليوم ، ظاهرة التمسك بالكلمات في مقابل الاستهانة بالقيم التي تمثلها تلك الكلمات . ذلك ان من كان مجددا وكان واثقا من ذلك لا يبالي ان يتهمه انسان بالجمود والرجعية . كما ان الشجرة الضخمة الباسقة تصمد للريح ولا تهابها بينما ترتعش لها الشجرة الهزيلة وتخشاها . وقد صور الاديب القصاص الامريكي ارنست همنغوي في رواية عظيمة له هذا المعنى فجعل بطلها يظن الناس يتهمونه بالجئون فلا يبالي ذلك ويقول لنفسه : (ماذا يهمني قولهم ؟ ما دمت ادري اني عاقل) . فهذه هي الثقة بالنفس وهي دليل على قوة الشخصية وثباتها على القيم . وانما يرتجف الناس في الوطن العربي من الالفاظ لانهم لا يتقنون بانفسهم . ولعمري ماذا يضر السحابة البيضاء ان توصف بانها سوداء ؟ ان حقيقتها هي البياض فلن تغيرها اتهاماتنا .

وقد يقول قائل : انما يرتعش الناس خوفا من تهمة الجمود لان الناس حولهم جهلاء يصدقون كل ما يسمعون ولا يملكون قدرة على الحكم المستقل . والجواب على ذلك ان تصديق الناس هو نفسه مظهر ضعف في الثقة بالنفس . فان الكلمات الباطلة لا ينبغي ان نلوث الحقيقة . ولا يصير الباطل حقا الا في مجتمع عميت بصيرته . وانما يخاف الناس من التهم الباطلة في المجتمع الاصم الذي فال فيه القرآن الكريم : «لهم قلوب لا يفقهون بها ، ولهم آعين لا يبصرون بها ، ولهم آذان لا يسمعون بها، اولئك هم الغافلون» .

والواقع الذي لا مرأ فيه ان بقديس الكلمات ظاهرة غير معروفة في الدول المتقدمة المثقفة . ففي فرنسا مثلا لا يعير اي انسان بانه ليس مجددا . وسبب ذلك ان التجديد عندهم شائع مبذول حنسى اصبح واقعا حيا ملموسا ولذلك لا تراهم يختصمون حوله . ونو فلنا للفرنسي انه لا يحب التجديد لما خطر له اننا نهينه كما يشعر المواطن العربي . والمعنى الحق لهذا اننا لم نحقق الفكر المجدد بعد وانما عانقتنا الالفاظ ولبسنا القشور فلذلك نخاف الاتهامات .

ومن هذا كله يبدو لي ان المجتمع العربي اليوم مجتمع يفسد عليه الجهل والظلام . واسباب ذلك ان اكثر من سبعين بالمائة من هذا المجتمع اليوم اميون مغمورون لا قيمة لهم سوى انهم قوى عمياء لها طاقة جسدية ينقصها ضياء العلم وبصيرة الادراك . والثلاثون بالمائة الباقية جلها متعلمون لا مثقفون . لان المثقف هو الذي يملك العلم ويملك فوق العلم ادراكا شخصيا ونورا عقليا يستنبط به المعاني ويهتدي به الى القيم . ان الثقافة بصيرة وروح . اما التعلم فهو حفظ المعلومات حفظا تصحبه عدم القدرة على الابداع . او ان الثقافة قدرة على الاجتهاد بينما التعلم جمود على المحفوظات ، والمثقفون هم الموجهون اما المتعلمون فاتباع . واغلب المتعلمين عندنا غير مثقفين الا اذا استثنينا قلة قد لا تزيد على الواحد في المائة . وهذه القلة مبددة ضائعة لاسباب كثيرة . فان بعض هؤلاء المثقفين شعوبيون يتكرون الامة العربية وراثتها . وبعضهم مخلصون للعروبة ولكنهم في ظلمات لانهم يدينون بالثقافة الغربية ويدعون الى الاخذ بها بكل قواهم . فلو اطعناهم لسخت شخصيتنا الحضارية . وطائفة ثالثة من اهل الثقافة تملك العروبة ولا تملك الاخلاق ومن لم يكن له خلق عال ومثل وقيم ، فهو سقط لا نفع فيه للامة العربية . بل هو افساد للناس وشر ووبال . والثقافة في يده سلاح اثم يجرحنا ويؤذنا .

ومع ذلك كله يبقى من المثقفين افراد يمكن ان نعدهم حين نعد . فاين هؤلاء الافراد ولم لا يعملون ؟ الجواب انهم يضيعون في الخضم المتلاطم من الجهالة والتأخر ، يقولون فلا يسمع منهم احد ، ويصححون فتتبدد كلماتهم . ومن المستبعد ان تميز الكثرة الجاهلة الخير فيما يقوله اديب فد او عالم حكيم . وانما الامم باغليتها .

ومهما يكن من امر ، فان قدرة الاديب النموذجي على الامس بالمعروف والنهي عن المنكر اكبر من قدرة المثقف والمتعلم لسبب واحد هو ان الاديب حامل فلم مبدع يستطيع ان يقلب المثل بالسكر والعبير فتنتقل الى القلوب الصماء وتفتحها للضياء الفامر . وللبلافة سحر يجعلها تفتح افعال القلوب المغلقة ، ولذلك تكلف الاديب بما لا تكلف به غيره من المهمات الشاقة في بناء المجتمع العربي . على ان يتذكر الاديب ولا ينسى ان قدرته وتميزه هو الايمان والاخلاق والعمس والعلم ، وغير ذلك من الصفات والمثل التي اشترطها في الاديب في اول هذا البحث . وهم من فلم موهوب ينجح في هتم المجتمع وزعزعة قيمه .

وخناما ادعو الله العلي القدير ان يهبنا الاديب المصلح الباني والمجتمع الذي يقوم على اسس متينة من العلم والعمل والايمان ، ومن الله التوفيق .

نازك الملائكة